رسائل التيسير في التفسير

الرسالة الثالثة

خصيم مبين

تأليف : محمد رفيق مسلاتي

المدينة المنورة

في شهر ربيع الأول عام
للهجرة النبويه 1442

خصيم مبين

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير...صدق الله العظيم .

ليس غريباً أن يكون هذا الكتاب ، القرآن العظيم محكم لا ترى فيه فطوراً، ولاتجد له عوجاً، فهو كلام الله العظيم رب العرش العظيم، الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن وأحكم كل شيء وفصله تفصيلا.وفصل فيه من الآيات ما قدّر بعلمه تفصيله، وأجمل المجمل فيه ليحتمل أوجهاً يستنبط منها كل جيل وكل قرن منه ما يثري معرفته ويغني علمه ليرتفع به أقوام ، وليضع به أقواماً آخرين.

ومما فصل سبحانه وأجمل في هذا الكتاب المبين آيات أنزلها سبحانه وتعالى ليتبين الناس أنه الحق من رب العالمين وأن هذا الكتاب لم يكن ليفترى من لدن أحد من العالمين، فلعلك تجد آية هنا أو آية هناك تشير إلى عظمة ما خلق الله سبحانه وتبين أنه لم يكن لبشر ولا ملك و لاجن أن يعلم تلك الآيات حين تنزل الكتاب المبين على رسوله الصادق الأمين، ولتعلم الإنس والجن أنه كلام رب العالمين.

ولقد سبق كثير من العلماء والمفسرين والعاملين على بيان الإعجاز العلمي واللغوي لهذا الكتاب المبين، وكل منهم أدلى دلوه وأغنى معرفتنا بما استنبط وبما فتح الله عليه من إضاءات وبيان محكم و مجمل. وكل منا له أن يتدبر كتاب رب العالمين بما لا يتعارض مع الدين وأصوله، ولايتعارض مع اللغة والسنة المطهرة وكذلك بما يلزم به الدارس أن يلم بعلوم القرآن الكريم, شريطة أن لا يلزم الآيات برأيه ويقول هذا ما أراد الله بقوله كذا وكذا ،،، بل لنا أن نقول هذا ما فتح الله علينا وهذا رأينا ولعلنا أصبنا والله أعلم بكتابه. نعم فقد أمرنا الله تعالى بالتدبر في هذا الكتاب العظيم بقوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً). وفي هذا البحث أعرض إلى ما فهمته تعمقاً في فهم آيتين في كتاب الله العظيم مما حملته كلمة (نطفة) من معان وحين اقترنت بقوله تعالى(خصيم مبين) فلم النطفة واقترانها بالخصم والخصومة؟؟ انظر قوله تعالى (من نطفة فإذا هو خصيم مبين).

وردت لفظة نطفة في القرآن الكريم إثنتا عشرة مرة (12) منهن اثنتان ارتبطتا بالخصيم مبين، فقط في سورة النحل (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) وفي سورة يس (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين).فهل بالامكان القول أن ما شرحه الشراح وقال به المفسرون والعلماء الأولون هو كل ما احتملته الآيات من معنىً؟ لا أظن ذلك بل أن ارتباط النطفة بقوله خصيم ليس حصراً أن يفهم منه أن المعنى المراد هو أن الله خلق الإنسان من نطفة ضعيفة من ماء مهين ثم يصبح من بعدها خصماً أو خصيماً يخاصم في الله أو يخاصم لله، يخاصم ويختصم

مبين في الحجة ومبين بالفعل؟؟؟هذا معنىً ذكره السابقون الأولون ولهم جلّ احترامنا وتقديرنا أثابهم الله خيراً، ولكنني والله أعلم أجد في ذلك الاتبارط بين النطفةِ والخصم ·معنىً أوسع وأعمق مما ذكر بل هو إعجاز علمي لم يكن ليصاغ للناس حين التنزيل باسلوب غير هذا. إنها إشارةٌ إلى عملية الإنقسام الذي تتعرض البويضة الملقحة لها فور اتحادها مع النطفة الذكرية، إنقسام مضاعف ، فما أن تلتحم النطفة الذكورية بالبويضة في الرحم حتى تبدأ عملية الإنقسام بمتوالية هندسية رياضية ، خلايا 2x2x4x4x16x16 وهكذا بابداع وتوظيف لكل خلية بمكانها وترتيبها .فعلى ماذا استندت باستنباطي هذا؟

أولاً: السؤال ما الحكمة من اقتران قوله سبحانه وتعالى نطفة بخصيم مبين.

ثانياً: الأصل اللغوي لمعنى كلمة خصيم وهل لهذه الآية دلالة غير التي قيل أنها في جدلية الإنسان وبيانه في المخاصمة مما يشبه قوله تعالى عن المرأة (أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين).

في معرض ذكره سبحانه وتعالى لمعجزة خلق الإنسان أشار سبحانه وتعالى إلى الترتيب المرحلي في التكوين:

قال (أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ· ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا)الكهف. وقال (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ· ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا)الحج.وقال(ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً · فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)المؤمنون.وقال سبحانه(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ· عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)المؤمنون.وقال سبحانه(وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ· ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا)فاطر.(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ· ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا)غافر.(مِنْ نُطْفَةٍ· إِذَا تُمْنَى)النجم.(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً· مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى)القيامة.وقال سبحانه في سورة الإنسان(خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ· أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)وأخيرا في قوله سبحانه(مِنْ نُطْفَةٍ· خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ)عبس.

وقد أفهم أن تلك المراحل في تكوين الإنسان ونشأته سواء في الأرحام أو ما قبلها حين كان آدم في طينته سبحانه وتعالى فلربما مرت تلك المراحل المذكورة في خلق آدم عليه السلام والله أعلم.

ماذا قال علماء الأجنة: نبذة من عملية إنقسام الخلايا وبناء جسم الإنسان:

المعنى العلمي لكلمة أمشاج في عملية التكاثر الجنسي :التكاثر الجنسي هو عملية تكاثر تضمن التنوع الوراثي للنسل يتم فيها اتحاد مشيج ذكري (حيوان منوي عند الثدييات) مع مشيج أنثوي (بويضة) بهدف تشكيل لاقحة (بويضة ملقحة) تنمو لتعطي فرداً جديداً ويتصف تكاثر أغلب الكائنات الحية من نبات وحيوان بالتكاثر الجنسي. وتشتمل عملية التكاثر الجنسي على عمليتين: الانتصاف أو الانقسام المنصف الذي يتم فيه فصل نصف عدد الصبغيات فينتج بويضة الأنثى في الأنثى ونطفة الذكر الآتية من

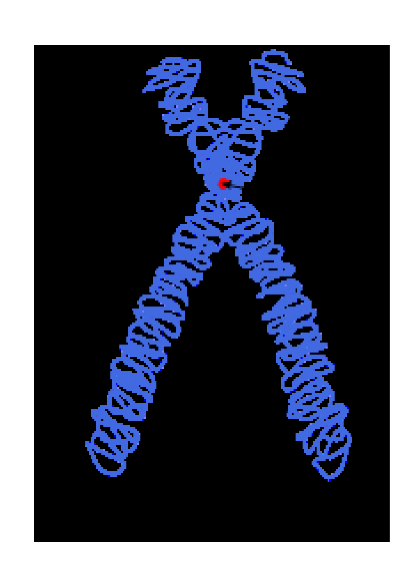
الذكر . وفي عملية الاخصاب يتم فيها اندماج مشيجين أو اندماج بويضة الأنثى مع بويضة الذكر واستعادة العدد الأصلي من الصبغيات.

يمكن رؤية الكروموسومات عادة تحت المجهر الضوئي فقط عندما تكون الخلية في الطور التالي من الانقسام الخلوي (وذلك عندما تجتمع كل الكروموسومات بشكلها المتكثف في منتصف الخلية). قبل أن يحدث ذلك، يُنتسخ كل كروموسوم، وترتبط النسخة الجديدة من كل كرموسوم بالكروموسوم الأصلي عبر منطقة تدعى القسيم المركزي (centromere) مما يعطي الصبغي شكلاً يشبه إشارة الضرب أو حرف X (كما يظهر في الصورة على يسار الصفحة) وذلك عندما يتوضع القسيم المركزي قرب مركز الصبغي، أو يأخذ شكلاً مكوناً من ذراعين فقط (بشكل /\ تقريباً) وذلك عندما يتوضع القسيم المركزي قرب نهاية الصبغي. في هذه المرحلة يدعى كل من الصبغيين الأصلي والمنسوخ عنه بـ الصُبيغي (كروماتيد أو شق الصبغي chromatid) ويُطلق عندها اسم الصبغي على شقيّ الصبغي المترتبطين مع بعضهما بالقسيم المركزي. في الطور التالي للانقسام الخلوي يدعى هذا الصبغي الذي له شكل X بصبغي الطور التالي. في هذه المرحلة يكون الصبغي مكثفاً للغاية مما يجعل من السهل رؤيته تحت المجهر ودراسته. في الخلايا الحيوانية يصل الصبغي لمرحلة التكثف العالية هذه في طور الصعود وهو الطور الذي يأتي بعد الطور التالي وينفصل فيه شقا الصبغي عن بعضهما البعض.

يمتلك الإنسان 46 كروموسومًا في كل خلية جسمية مرتبة على شكل 23 زوجا وكل زوج يتصل ببعضها عند نقطة قرب المركز تسمى القسيم المركزي (centromere) في كل زوج من الكرموسومات يطلق عادة تسمية كروماتيد على القضيب الواحد الذي يتصل مع القضيب الآخر في الزوج، وللسهولة اعتدنا على استعمال مصطلح الكروموسوم لوصف الكروماتيدين المتحدين.

وتختلف الخلايا في الكائنات الحية في عدد الكروموسومات الموجودة فيه. ففي كل خلية جسمية في الأنسان يوجد 46 كروموسوما، أما في القرد فهناك 48 كروموسوما في كل خلية جسمية. ولا يعتمد عدد الكروموسومات على حجم الكائن الحي، فالفيل مثلا عنده 56 كروموسوما في كل خلية جسمية بينما تمتلك الفراشة 380 كروموسوما في كل خلية جسمية.

صورة للكروموسوم والكروماتيد



فمما تقدم من آيات يعرض الله تعالى على الإنسان فضله عليه وعظم تقديره وإبداعه مما هو أكبر وأجل من الإشارة إلى أن الإنسان قد غدا خصيما مبينا بعد أن كان نطفة.أليس أن يكون الإنسان من بعد نطفة جباراً أو سلطانا أو ملكاً أشد وأكبر من أن يكون خصيماً مبيناً ؟. إلا أن يكون في معنى الخصيم المبين معنى أكبربل أن ذلك يأتي في سياق ترتيب الخلق والتكوين وهو أعظم مما سبق ذكره على لسان الأولين ليس لقلة علم أو استدراك عليهم، بل لأن لكل زمان دولة ورجال، ولكل زمان علمه ووسائله و أدواته وفهمه لما يفتح الله عليه من معرفة تناسب مع تطور المعرفة لدى البشرية فما أتيح للعصور المتأخرة من وسائل علمية ومجهرية أسهمت في تطور علم الأجنة والاتساع في فهم معاني التكوين والآيات التي أشارت إليه.

وأنا لا أريد أن أخوض في علوم الطب والأجنة فما هذا باختصاصي ولكنني على خطى اللغة العربية أمشي لفهم معنى قوله تعالى خصيم مبين. أنظر إلى شكل الكروموسوم والكروموتايد أي الجزء العلوي على شكل 7 أليس أطرافا وخصوماً في لغتنا العربية العظيمة .

لهذا رأيت أن أرجع إلى المعاجم العربية لعلي أجد ضالتي فيها، وفعلا لقد أدهشني أن معنى الخصم والخصوم والخصيم والتخاصم كلها تشير إلى إنقسام وأطراف وكأن مصدرالخصم هو أن يأخذ كلُ من المتنازعين ركناً بعيداً عن خصمه وهذا هو المصدرالأول لمعنى خصم وخصوم. فمعنى الإنقسام هو المصدر المعنوي للخصم والخصيم وهكذا كان الأصل الأول الذي ارتكزت عليه في قراءتي هذه وهو يتناسب مع ترتيب سياق الخلق والتكوين من تراب ثم من نطفة (مخلقة وغير مخلقة) أي أنها تلك النطقة تمر بمرحلة تلو الأخرى إلى أن يكتمل خلقها وخلق المخلوق كاملاً.

أما الأصل الثاني:كما استخلصته من اللغة في معاني الخصم: الخصم جانب العدل الّذى فيه العروة، ويقال انّ جانب كلّ شيإء خصم. وأخصام العين: ما ضمّت عليه الأشفار ويمكن أن يجمع بين الأصلين فيردّ الى معنى واحد.

أمثلة من معاجم اللغة العربية:

كتاب اساس البلاغة للزمخشري: اختصموا وتخاصموا وهو خصمه الخ ... وضعه في خصم الفراش أي طرفه وخذوا بأخصام الغرارة أي أطرافها ،،، الخلاصة طرفان أو أطراف كل في خصم .

كتاب العين: للخليل بن احمد: الخصم واحد أوجمع (هل أتاك نبأ الخصم) الخصم والخصومة والاختصام والخصيم الخ...الأطراف: والخصم طرف الراوية الذي بحيال المؤخرة والطرف الأعلى يسمى العصم. وزوايا الفرش والجواليق كلها أخصام.

لسان العرب: لإبن منظور:الخصومة الجدل، خاصمه فخصمه مخاصمة والمخاصمة وخصم مفرد وجمع والخصيم كالخصم الخ. والخصم الجانب وجمعه أخصام.

المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده: الخصيم كالخصم والجمع خصمان وخصمان ورجل خصم أي جَدِلٌ. والخصم الجانب والجمع أخصام. وقيل أطراف المزادة أخصامها، وخصوم السحابة أطرافها قال الأخطل إذا طعنت فيه الجنوب تحاملت بأعجازها جرار تداعى خصومها (جرار بضم الجيم).

لذلك أخلص وما توفيقي إلا بالله إلى أن اللفتة النورانية في قوله تعالى (خصيم مبين) هي إشارة إلى العملية الأولى في خلق الإنسان بل وجميع الثديات، وهذه الإشارة تكتسب أهمية بالغة في الإعجاز العلمي في التكوين والتصوير والتي لم يكن لأحد من البشر معرفة بها قبل نشوء علم الأجنة واختراع المجهر المكبر في القرون المتأخرة , وبهذا يكون القرآن الكريم كما هو مهيمن على ما قبله من الكتاب، فهو لم يسبقه أحد من الكتب السابقة ولم يذكر أحد من الفلاسفة شيئاً ولا في الديانات الوثنية أو غيرها شيئاً عن عملية إنقسام البويضة بعد التلقيح ومن ثم بناء الهيكل البشري بنفس عملية الخلق ومراحله.

وهذا رأيي ولعله أن يكون صواباً ولا أقول على الله ما لا أعلم والحمد لله رب العالمين.

محمد رفيق مسلاتي